قصص
٣

بستان لا يروى إلا بماء السماء

ليانة بدر

كان ذلك منذ خمس سنوات تماما .

ما زالت تذكر زيارتها الأولى إلى هناك .

صحت مبكرة كعادتها .

كانت منشرحة الصدر، متيقظة الذهن، مذعنة لأوامر الولي الذي زارها في المنام .

حضر بهيئته الوسيمة، ولحيته الوقورة البيضاء . وقف أمامها حاملا مسبحته التي تبرق حباتها الذهبية . وبكفه ذات الأصابع الطويلة أشار لها بحنان صوب الجنوب، وقال :

اذهبي إلى الحرم الإبراهيمي في الخليل .

رمقها بطرف عينه الصارمة، ثم مضى . وهكذا صار لزاما عليها أن تلبي نداء الشيخ الجليل الذي أشار عليها بأن تذهب إلى الحرم الإبراهيمي، هي التي سمعت نساء الحي يتحدثن عن جلال الحضور فيه، دون أن تسنح لها الفرصة لزيارته .

قامت فجرا وأتمّت صلاتها، ثم عملت على تهيئة اللبن المتخثر داخل كيس القماش الأبيض المعلق على أنبوب حنفية المطبخ .

حزمت حبتي " يوسفي " داخل منديلها، وقطعة من الخبز الممسوحة باللبنة الطازجة التي أعدتها مما يجلبه الحلاب كل يوم أو يومين. كانت موقنة بأنه لا يوجد من يمتلك عقلا ويمكنه أن يصدق أن اللبنة الصناعية المغلفة في علب بلاستيكية عند البقال غير مغشوشة سواء بالماء أو بمواد أخرى لا يعرفها إلا الله وأصحابها.

تناولت سلتها المصنوعة من عيدان البوص بعد أن وضعت فيها زجاجة ماء صغيرة، ثم خرجت مرتدية ثوبها الفلاحي المطرز الحواشي بنقوش حمراء لفروع شجرة السرو. لفت وجهها بطرف منديلها خوفا من برد الصباح الباكر الذي قد يلفح الوجه ويصيبه بالشلل النصفي، ثم اتجهت لتوها إلى موقف الباص الذاهب إلى الخليل.

هي لم تعرف الخليل قبلا في حياتها، لكنها سوف تزور إبراهيم الخليل " أبو الأنبياء " كي تبتهل له من أجل سقوط الأمطار على حاكورتها التي أضر بها جفاف الموسم الحالي. في زيارتها الأخيرة إلى أرضها التي تقع على أطراف المدينة، وجدت " السلسلة " الحجرية وقد تهدمت كأن زلزالا ضربها خلال الليل، فيما نشفت جذوع أشجار الفواكه، وتيبست أوراقها.

وتلك كانت الكارثة !

فإذا لم تهطل الأمطار فكيف سيكون عليها قضاء الفصول القادمة دون ثمرات القراصيا الحمراء التي تصنع منها المربى ؟ وكيف يمكن أن يكون هنالك أي طعم لفطور الصباح دون مربى المشمش بلونه البراق، واختلاط حلاوة طعمه بنقطة صغيرة من الحموضة التي تنشط المذاق مع الخبز البيتي والجبن الأبيض النابلسي؟ وكيف سيتوفر لديها تموين كاف من اللوز " الفريك "، وثمرات التين، ومن مرطبانات الزيتون ذي الحبات الكبيرة الخضراء المكبوسة بالماء والملح كي تكفيها لمواجهة الشتاء الطويل وسط هذا الغلاء الفاحش ؟

عليها أن تذهب وتبتهل هي أيضا، مثلما حكت عشرات الجارات عندما كن يحضرن إليها ويبدأن في النق والشكوى كي تبصر لهن في فنجان القهوة. يتذمرن من الرجال والأولاد والحماوات، ويحسدنها على بصيرتها التي تجيد رؤيا الغيب، رغم أنها سوف تظل "بنتا" على الدوام ولن يتزوجها أحد.

قامتها القصيرة التي تشبه الأقزام حرمتها الخطاب رغم جمال عينيها اللوزيتين . كبرت مع أمها

وبقيتا معا في البيت بعد خروج إخوتها منه. كان أهم ما يمكن أن تفعله هو رعاية قطعة الأرض الواقعة على التخوم الغربية لرام الله. عدا هذا، لم يكن لها من تسلية سوى قراءة الفناجين وقراءة الأقدار التي تبرزها الخطوط الدقيقة حين تأتي النسوة لزيارتها في الصباح لشرب القهوة العربية المخلوطة بحبات الهال. يقلن جميعا أن لديها موهبة خارقة في التبصير، مع أنها لا تكلف نفسها أي شيء سوى النظر وتفسير العلامات.

هي تعرف تماما سبب اعتقادهن الراسخ بالقدرة التي وهبها الله. يقلن وراء ظهرها أنها " مقدوعة " شبيهة بالأقزام. الغريب أن ما يلفت الأنظار لقصر جسمها هو طول أمها المميز. صحيح أن كبر سن أمها جعلها شبه ضريرة، لكنها ما أن تقف قرب العجوز العملاقة حتى تشكلا سويا رقم عشرة. عصا طويلة وأمامها صفر.

لو تعرف الجارات همومها الخفية وهي تستقبلهن بابتسامة وكلام هازئ ! تضحك منهن وتسخر، وتنتقم من ظنونهن حول أنها تخاوي ملك الجن بسبب عينيها اللوزيتين اللماعتين، وحدقتيهما اللتين تكتسبان غرابة بسبب انقسام اللون داخلهما، فلا لونهما بالأخضر ولا بالرمادي أو الأزرق. وأيضا، وقبل كل شيء ذلك القصر غير المألوف الذي يجعلها أقرب إلى الجن (بسم الله الرحمن الرحيم) حين لا يردن تلفظ الاسم.

لم يكفها كل هذا ! فقد أتى الاحتلال وبجيبه ارتفاع الأسعار، وجفاف الأراضي وانهيار السلاسل الحقلية التي صمدت عشرات الأعوام وحمت الأرض من الانجراف. لم يبق من عالم الأمس إلا قطع الأراضي الصغيرة التي لم تدخل في تخطيط المستوطنات، رغم أن كثيرا من الأراضي الأخرى ماتت أشجار زيتوناتها بسبب انعدام رعاية أصحابها لها، أو مصادرات الجيش المستمرة للأراضي.

تنهدت وهي تشكو لربها مخاوفها.

نعم ! ستذهب إلى والد الأنبياء، إلى إبراهيم الخليل وتشكو له مصيبتها الكبيرة. فقد يرزقها الله الكريم بقليل من ماء السماء لحاكورتها الواقعة على أطراف المدينة.

ركبت في الباص العمومي. ولم تنس أن تشتري كعكا بالسمسم مع عدة بيضات مشوية في الفرن. فلربما تتأخر هناك وعليها أن تفطر جيدا . احتفظت بالخبز المحشو باللبنة لطريق العودة.

لم يستغرق الطريق وقتا طويلا . وعدا عن رائحة المازوت المنبعثة من بطن الباص والتي تقلب "المنافس" والمعدة في الصباح، فقد وصلت دون تأخير، وبادرت إلى التوجه إلى الحرم .

صعدت الدرجات الكثيرة وهي تستدعي وتستغفر ربها . واتجهت إلى الداخل وهي تتمتم بالأدعية والإسترحامات على أرواح الشهداء الذين قتلوا غيلة بيد مستوطن يهودي متعصب خلال شهر رمضان المقدس عندما كانوا يصلون داخل الحرم . اتجهت إلى القسم المخصص لأهل الخليل بعد أن قام الجيش بقسمة الحرم إلى جهتين يحرم على الفلسطينيين التواجد في أحدهما . بادرت إلى الصلاة كي لا تفقد وضوءها، وعندما أتمت ركعتين أتتها الضربة التي لم تخطر ببالها قبلا .

وما كان ممكنا أن تتوقعها !!

ارتطمت بها كتلة ثقيلة محبوكة الأطراف بالحديد، ولم يخطر لها .

أبدا !

لم يخطر لها على بال أن أحد الجنود سوف يركلها ببسطاره العسكري، وأن الضربة سوف تتجه إلى قفاها لتوقعها رأسا على عقب .

أحست أن الأرض تميد بها . لم تفهم الأمر أصلا، وما كان يمكن لها أن تستوعبه إلا حينما أحست بروحها وهي منكفئة على الحصير، ورأسها معلق تحت رقبتها . كانت الأرض مستقرة بشكل عكسي عندما رأت طرف جزمة عسكرية ضخمة، وأخمص بندقية يمتد بمحاذاة رأسها .

فقط حينها بدأت في فهم ما جرى وهي تحاول تغطية ساقيها اللتين نضا الثوب عنهما عندما أصيبت . كان الجندي ينظر لها ساخرا بعينيه الزرقاوين !

رفسها المجنون وأطاح بها على " طولها وعرضها "دون أن يكلف نفسه سوى الابتسام هزءا .

لم تتحرك ولم تفعل شيئا، فكيف يمكن إذا ؟

كيف يمكن !

بدأت في لمّ أطراف ثوبها على جسدها وهي تساعد نفسها على الوقوف . كانت الصدمة قد أخرستها فلم تنبس ببنت شفة . من يعلم إذا كان هذا المسلح من أتباع ذلك الرجل الذي ارتكب "مذبحة الحرم" ، وعندها قد يجهز عليها، وتفنى عن وجه الأرض دون خبر ولا ما يحزنون .

لا يمكن لها توبيخه، ولا يمكن لها تجاهله أيضا . لمت أطراف ملابسها، وعدلت من وضع

غدفتها البيضاء المتهدلة على رأسها، وبدأت تحاول جر نفسها للقيام. لكن ألما داهمها فجأة في الجزء الأعلى من رأسها ومن جبينها.

وكما كان الجندي واضحا داخل مدى نظرها ببسمته القاسية الجافة، اختفى من حقل رؤيتها وبرزت عجوز خليلية ترتدي "الدراعة" التقليدية. قالت:

بسم الله عليك يختي. ولا يهمك. هدول مجانين بعيد عنك.

تعي. يختي. ارتاحي شويه عندي.

ورويدا رويدا استطاعت أن تفهم أن هذه المرأة التي ساعدتها على تعديل جسمها والوقوف ثم دعتها إلى بيتها المجاور للحرم تدعى أم عبد الله.

وصلتا إلى أحد البيوت القديمة ذات الحيطان السميكة الواقعة على تلة تطل مباشرة على ساحة الحرم. دخلتا إلى غرفة ذات سقف مرتفع يتصدرها شباك ضخم مسيج بقضبان حديدية وله حافة عريضة. دعت أم عبد الله ضيفتها إلى الجلوس فوق بساط خفيف فرش على تلك الحافة.

من بين الأصص الفخارية المصفوفة على الإفريز المعدني للشباك، وخروم الأوراق الخضراء المنمنمة ذات النهايات الناعمة لنبات (الهوا) أشارت أم عبد الله لمبنى الحرم وتشكت:

مش عم بيصلوا عالنبي!

كل يوم والثاني بتقوم قيامتهم وبيهجموا علينا!

ثم ترفقت وهي تقول:

شو الاسم الكريم يا بنتي؟

قالت الضيفة:

- محسوبتك نجاح.. وترددت.

هل تقول (القدعة) كما يطلقون عليها وراء ظهرها؟

لكنها عادت وأكملت:

من بيت أبو العزام من البيرة.

فأجابتها أم عبد الله:

- والنِعَم!

بل وبدأت في البحث عن أصول مشتركة للعائلتين عبر أقارب بعيدين. ألحت عليها كي

تستريح، وجعلتها تنقل مكانها إلى فراش أرضي مغطى بجاعد خروف، بالقرب من تخت نحاسي يتصدر الغرفة.

انطلقت نجاح في إخبار أم عبد الله عما حدث معها منذ قدومها في الصباح الباكر. أسهبت في وصف ترتيباتها للحضور ونذرها للقدوم إلى سيدنا إبراهيم أملا في أن تروى حاكورتها التي أضر بها الجفاف.

عزمتها أم عبد الله على العشاء، واقترحت أن تدهن لها مكان الوجع بالسيرج. ولم تذعن أمام أعذارها بل ألحت عليها كي تبيت الليل عندها.

لم تدر نجاح كيف مضى الوقت سريعا وصار الوقت عصرا، لكنها ما زالت تذكر أن نظراتها كانت معلقة بنبات "الهوا" الذي يجذبها تأمل رقة صعوده على القضبان الثخينة للنافذة، حينما دق الباب وأطل منه وجه رجل غريب. كانت أم عبد الله قد ذهبت لبعض شؤونها حين بادر إلى القول:

– دستور.

جفلت الضيفة التي لم تحضر نفسها لحضور ذكري، إلا أن أم عبد الله سارعت إلى العودة وقامت بتقديمها إلى ابنها. أنزل الشاب بعض الأكياس والمؤونة من بين ذراعيه، وغادر.

لم تكد أن تراه حين سارعت أمه إلى إخبارها عن معجزة بقائه حيا بعد معارك لبنان.

لكن نجاح لم تطلع على الحكاية كاملة إلا عندما عاود الحضور مساء، وسهر معهما على الفراش الممدود على الأرض أمام صحون حوت المكسرات التي جلبها.

على صوت طقطقة قشور حبات اللوز والفستق السوداني كان ينتقل من حكاية إلى أخرى. يشفط باستمتاع جرعات غنية من الشاي فيما يتابع القص وكأنه يحكي عما حدث مع إنسان آخر ليس هو. يرنو إليها بعينين بنيتين صغيرتين تلتمعان ودا وحميممية كلما انتقل من مقطع إلى آخر.

كان عنصرا عاديا التحق بالفدائيين في لبنان، وعاد إلى بلده مع بقية العائدين قبل أعوام قليلة. أصيب مرة في اجتياح الجيش الإسرائيلي لصيدا عام ١٩٧٨، وظن زملاؤه أنه استشهد. كان ينزف حين زحف على زاوية الميدان كي يتدارى لكنه فقد وعيه حين وجد نفسه مكوما بين جثث القتلى. ظل مرميا بين أكوام الموتى لأكثر من يوم وليلة إلى أن انسحب الجيش. عثرت عليه الممرضات

في المستشفى بين الجثث المتخشبة غائبا عن الوعي، مدمى بكتل الدماء الجافة على جلده.

وعاش !

ضحكت أم عبد الله، فبرق سنها الذهبي، وتلألأت تجاعيد خديها. التمعت عيناها كأنها عادت إلى ميعة الصبا.

قالت:

– هو عندنا الآن !

وهوى قلب نجاح بين ضلوعها للمرة الأولى في حياتها. وأحست كأن نذرها لن يستقيم إن لم تذهب إلى مقام إبراهيم الخليل في الغد كي تتلو دعاء الشكر لكل ما يقدمه الله سبحانه وتعالى لعباده. فهذا هو الفدائي الذي ضحى بروحه، ثم اقامه الله من بين الأموات.

ضمت يدها اليسرى إلى قلبها في حركة حبور وهي تتخيل نفسها في رحاب مزار النبي. لكن رعبها لم يفارقها. ربما لم يزل هناك ذلك الجندي.

ربما ! ما زال. هناك.

ستحتضن سرورها الغامر بنجاة عبد الله، وفي الغد يمكن لها أن تقرر إذا كان بإمكانها معاودة الكرة وزيارة مسجد الحرم الإبراهيمي كي لا تفوت نذرها الأول.

الحكاية وما فيها أنها قررت تأجيل زيارة المقام والعودة إلى رام الله منذ الصباح الباكر. ليس فقط بسبب خوفها من ذلك الجندي، وانما لخشيتها من أن يكون غيابها قد أفزع "الختيارة" أمها. سوف تعاود الحضور بعد أسبوع، وعندها ستكون آلام ظهرها قد شفيت.

وعادت بعدها مرات كثيرة.

أكثر من أن تحصى أو أن تعد. صارت جزءا من العائلة الصغيرة، وتابعت عن كثب الصعوبات التي تعترض ادخال زوجة عبد الله وأولادهما إلى الوطن.

شرحت لها الحجة أم عبد الله بأنه لم يستطع جلب عائلته بسبب مشكلة توفير أوراق " لم الشمل " التي لم يستطع الكثيرون حلها لإحضار عائلاتهم.

الموضوع ! قالت لها. إن كل من لا يمتلك شهادات ميلاد رسمية ووثائق للسفر معترف بها لا

يستطيع الحضور إلى هنا. وهم اضطروا إلى ترك مخيم عين الحلوة خلال الاجتياح الأخير في لبنان دون أن يتمكنوا من الحصول على أوراقهم الثبوتية.

إيه ! سوف تتذكر نجاح تلك اللحظات من حياتها، لأن شوقها كان لا ينفك يتنامى في كل زيارة لسماع حكاياته.

وبدورها كانت تخبره عن حاكورتها التي تحوي أشجار التين، والزعرور، والبطم، والبرقوق البلدي. تحكي له عن جرافات المستوطنة التي بدأت تقترب من الأكمة القريبة من الحاكورة. يجرفون أراضينا بحجة أنهم سيقومون بشق طريق يربط مستعمراتهم بنقاطهم العسكرية.

بلعت ريقها، وقالت:

لسه هم بعيدين ! ما قربوا من الحاكورة.

كان يحكي لها حانيا رأسه وكأنه يهذي أحيانا:

بيوتنا وأراضينا راحت، وما بقي شي. هاي الغرفة كانت لستي.

عاودت القدوم بعدها بأسبوع، ثم بأسبوعين.

حكايات تلد الحكايات، وهو يرنو إليها بعينين بنيتين صغيرتين تلتمعان ودا وحميممية . هل كان معنى هذا أنه يتغزل بها ! .

يا نجاح، للمرة الأولى في حياتك يراك مخلوق ولا يحدق فيك بلؤم أو لوم لأن طولك يناهز " الشبر " .

كانا لا يتوقفان عن الكلام، ويتحادثان طيلة الوقت دون ملل !

تحدته مرة حول حادثة ما. مازحها. رفعها. أحست نفسها خفيفة. سحت الدموع من طرف عينيها، وأوشك قلبها على الهرب والقفز من حلقها.

كان تعلقا لا يمكن لها أن تصرح به. بل ولا تجرؤ على ذكره.

وهو ! ظل يردد أمامها عن حاجته لها.

أمسكها من يدها ذات مرة، وعصر قبضتها بيده. شدها إليه فانبعثت منه رائحة لم تفارقها قط . أشياء كثيرة أخرى لا يمكن لها تذكرها إلا وتغمر كامل جسدها رجفة تذكرها بلمعة الدفء خلال عاصفة شتائية.

أرادها أن تترك عائلتها وتتزوجه كي تبقى معه. وهي؟ كانت تعرف النتيجة سلفا. لن تقبل

عائلتها زواجا مثل هذا. وعليها أن لا تغامر وتذكر لهم شيئا عن الموضوع كي لا يمنعوها من الحركة والقدوم إلى هنا.

كانت تتحجج أمامهم بالأرض، وبجفاف الحاكورة التي لم يقصر الشتاء في إمدادها بخيرات المطر.

ويوما بعد يوم. عندما بدأت في الاقتناع بأن عائلته لن تحضر أبدا، وتهيأ لها بأنها ستخبره بموافقتها . أثمرت الجهود وحصلت العائلة على أوراقها. زوجة، وأربعة أطفال وفتاة صغيرة لم يفلحوا في الالتحاق به بسبب نشوب الاشتباكات التي رافقت الانتفاضة.

وكان عليه الانتظار حتى يهدأ الوضع قليلا.

توقفت زياراتها. كانت تبحث عن الحجج وتسوقها واحدة واحدة عندما تتصل به على جهازه الخلوي الصغير.

يحمله تحت حزامه، ويشبكه معه دائما. ويحرص على أن يسألها عن أخبار الحاكورة.

تحكي معه وتخال نفسها واقفة قربه في ضوء الغروب المائل إلى الذهبي اللماع. غروب الخليل له لون متميز لكثرة كروم العنب هناك !

كانت تتحجج بانشغالها بالمسيرات التي ينظمها أصحاب الأراضي خوفا من مصادرتها. تشارك في المسيرة، ثم تهرب وتبتعد عندما يبدأ الجنود في إمطار المشاة بقنابل الغاز. يسحبها الخوف بحزام فولاذي ، فتظل مستعدة للانسحاب قبل أن يبدأ الضرب والرصاص وسحب قنابل الغاز التي تملأ الحلق بالشوك، والصدر بقطع من الصخر .

ولا تقول له أنها تخاف.

لأنها تستحي أن تحكي عن الخوف.

وكانوا قد بدأوا يقتربون من أرضها.

ثم ! أغلقت الطرق بحواجز الجيش. لم يكن هنالك في جميع الأمكنة سوى مسيرات احتجاج، ومظاهرات، وضرب حجارة، وأطفال يرمون أنفسهم على الحواجز فيما البنادق تقتنصهم.

فكيف يمكن أن؟

ويوما، وصلت إلى أقرب قطعة من أرضها لتجد أن حاكورتها مصادرة بطريقة أو بأخرى. كانت قد صارت على حافة الطريق التي بنوها بعد أن جرفوا الأراضي لإقامة الطرق العريضة

حول مستوطناتهم . وكل ما كان على جانبي الطريق كان مصادرا بطريقة أو بأخرى حتى لو لم يستلم أصحابها تبليغا بالمصادرة .

سارقو الأرض، هؤلاء !

كل عشية، كانت تنهي أشغالها المنزلية وتبدأ في تذكر رحلتها الأولى إلى الخليل. ترقد بعد العشاء على "الصوفا" في بيتها بعد أن تنام أمها الضريرة.

ومثل كل ليلة تخرج من تحت الفراش صفحة من جريدة محلية مثنية إلى مربعات صغيرة. تفردها، فتبين بين تجاعيدها الكثيرة صورة أم عبد الله منحنية على جثة ابنها الوحيد القتيل بملامحها المتشنجة، وعينيها الباكيتين.

ومثل كل مساء تسيل دموعها وتشهق لأنها لا تستطيع الوصول إلى هناك بعد أن احتل الجيش رام الله.

تعاود التحديق في الحروف الصغيرة المكتوبة تحتها من أن الجيش قد استهدف بالخطأ مدنيا يعمل في محل لنقل جرار الغاز إلى بيوت البلدة القديمة، قريبا من تل الرميدة، بعد أن ظن الجنود أن هناك مخربا ما يعمل على المس بهم.

تحدق في الصورة، وتفكر في الحاكورة التي لم تعد تستطيع الوصول إليها، وإذا ما كان سينزل المطر عليها هذا الشتاء.